

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الكلية : الآداب واللغات

القسم: اللغة والآداب العربي

عنوان الليسانس: الأدب العربي

الشعبة: دراسات أدبية

التخصص: أدب عربي

المادة : جماليات السرد العربي القديم

السنة الثالثة

السداسي :الخامس

محاضرات مقياس:

جماليات السرد العربي القديم

الأستاذة: دربالي وهيبة.

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

السنة الجامعية-2021-2022

مقياس جماليات السرد العربي القديم

نتطرق في المحاضرات التالية لدراسة النصوص السردية العربية القديمة، التي مثلت الوجه المشرق للأدب العربي القديم، ووجدنا أثرها في الآداب العالمية، ونحاول كشف وإبراز الجوانب الجمالية في السرد العربي القديم.

عنوان المحاضرة الأولى - السرد العربي القديم : النشأة والتطور :

إن مجال السرد هو قديم وعريق في تراثنا الأدبي، والعربي قديماً مارس أشكالاً عديدة من السرد في صورة أولية بسيطة، ولكن ما إذا جئنا لمصطلح السرد في حقيقة مفهومه الاصطلاحي، فهو حديث، ولقد عادت بدايات تشكل السرد العربي إلى العصر الجاهلي وتطور مفهومه عبر العصور الأدبية، وفي المستهل سنتعرف على مفهوم مصطلح السرد .

أولاً - تحديد مفاهيم بعض المصطلحات السردية :

نحاول تحديد مفهوم بعض المصطلحات التي لها صلة مباشرة بموضوعنا، ومنها : السرد والجمالية، ونبدأ بمصطلح السرد بتحديد مفهومه اللغوي ثم الاصطلاحي:

1- مفهوم مصطلح السرد narration :

في تعريف مصطلح السرد نبدأ بمفهومه اللغوي أولاً ثم نعرض مفهومه في اصطلاح النقد الأدبي الحديث .

أ- السرد في اللغة :ورد مفهوم السرد عند ابن منظور في معجمه لسان العرب في قوله: «السردُ في اللغة تَقْدِمَةُ شيء إلى شيء تأتي به مُتَسِقًا بعضه في أثر بعض متتابعًا، وسرد الحديث ونحوه يسردهُ سَرْدًا إذا تابعه، وفلان يَسْرُدُ الحديث سَرْدًا إذا كان جَيِّدَ السياق لَهُ».

نجد أن معنى السرد في المفهوم اللغوي هو التالي والمتابعة في الكلام، وورد كذلك في الاستعمال اللغوي: «سرد سَرْدًا وسرادًا الجلد: حَرَرُهُ، الشيء: تقبه الدر: نسجها، وسرد الدر؛ أي التتابع في النظام... وسرد الحديث أو القراءة: أجاد سياقهما، وسرد الكتاب: قرأه: بسرعة».

ومنه فالمفاهيم اللغوية للسرد تنحصر في الدلالات التالية: الترتيب والتتابع والاتساق والتسلسل في إلقاء الكلام، وعرضه في صورة جيدة ومنظمة.

ب- السرد في الاصطلاح : نتناول المفهوم الاصطلاحي للسرد في النقيدين الغربي والعربي :

ب-1/ مفهوم مصطلح السرد في النقد الأدبي الغربي الحديث :

وفي تحديد مفهوم مصطلح السرد في النقد الغربي الحديث نجد أن «مصطلح السرد narration يُحدد على أنه فعل القص، ونتيجة له، وهو عملية الإخبار المكتوبة أو الشفوية للوقائع والأحداث الواقعية أو المتخيلة».

ومنه فالسرد هو حكاية أحداث على سبيل المشافهة أو الكتابة، وقد تكون واقعية حقيقة أو متخيلة من طرف ذهن السارد «والسرد هو إجراء تعبيرى يتمثل في استخدام الفعل بصيغة الحاضر الإخباري».

شمل هذا التعريف للسرد على مفهوم عرض الأديب للأحداث الواقعية أو المتخيلة، والتعبير عنها بصيغة حاضر السرد، وفي سياق متصل عرّف الناقد جيرار جينيت السرد في قوله: «السرد هو مجموعة الأحداث المروية من الحكاية؛ أي الخطاب الشفوي أو المكتوب الذي يرويّه».

نلاحظ أن جيرار جينيت جمع في مفهومه للسرد بين الخطابات الشفوية و المكتوبة على حد سواء، ويُعرّف كذلك السرد narration : على أنه «خطاب يقدم حدثاً أو أكثر، ويتم التمييز تقليدياً بينه وبين الوصف description والتعليق commentary سوى أنيـه كثرأ مـراً مـا يـتم دمجهم فيـه».

لقد أشاد بعض النقاد الغربيين بضرورة التمييز بين السرد وإجراء الوصف والتعليق ،ونجد أنه «من أجل التمييز بين السرد ومجرد الوصف واقعة ؛ فإن بعض السرديين "لابوف ،برنس ،ريمون،كينان " قد عرفوه بأنه رواية حدثين خياليين أو روائيين على الأقل...وقرروا أيضاً بأن السرد يجب أن يتضمن موضوعاً متصلاً ، ويشكل كلاً متكاملًا» .

ومنه فالسرد يعني رواية خطاب شفوي أو مكتوب أو رواية الوقائع والأحداث الخيالية أو الواقعية في أسلوب منظم «والسرد أو القص هو فعل يقوم به الراوي الذي يُنتج القصة ،وهو فعل حقيقي أو خيالي ثمرته الخطاب .

ومنه فالسرد عملية إنتاج يمثل فيها الراوي دور المُنتج ،والمروي له دور المستهلك ،والخطاب دور السلعة المنتجة» .

نلاحظ أن المفاهيم الغربية للسرد جمعت بين ما هو شفهي أو كتابي، وأدبي وغير أدبي، وما هو واقعي أو خيالي في الخطاب المسرود، وركزت على طريقة التعبير في السرد ،وبذلك يكون السرد عملية منظمة في الإخبار بالوقائع والأحداث من طرف السارد .

ب-2/ مفهوم مصطلح السرد في النقد الأدبي العربي الحديث :

وردت مفاهيم كثيرة للسرد عند النقاد العرب ، ومنها ما ذكره محمد صادق الرافعي في قوله: « السرد هو متابعة الكلام على الولاء والاستعجال به، ويراد به جودة سياق الحديث» .

ركز محمد صادق الرافعي في تعريفه للسرد على سرعة الإخبار ، وحسن عرض سياق الكلام ، وفي سياق متصل عرّف الناقد عبد المالك مرتاض السرد بقوله:«السرد هو تتابع الماضي على وتيرة واحدة» .

نرى بوجود توافق بين محمد صادق الرافعي وعبد المالك مرتاض في ذكر خاصية تتابع سرد الكلام ، وأما الناقد سعيد يقطين فيُعرف السرد بأنه « نقل الفعل القابل للتداول سواء أكان هذا الفعل واقعياً أم تخيلاً ، وسواء تتداول مشافهة أم كتابة» . السرد هنا هو فعل متداول ،ولا يهم سعيد يقطين إن كان نوع الفعل واقعي تخيلي أو خاصية عرضه شفهي أو مكتوب، ويرى سعيد يقطين بأن السرد فعل لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء أكانت أدبية أو غير الأدبية بيدعه الإنسان أينما وُجد، وحيثما كان» .

نلاحظ أن مفهوم سعيد يقطين للسرد عام شمل كل الخطابات الأدبية وغير الأدبية والشفاهية والكتابية والحقيقية والمتخيلة . ولقد اختار الباحث ضياء الكعبي مصطلح "السرد العربي القديم" من بين مصطلحات كثيرة (سرد، سردية، المسردية، القصصيات.. الخ) للدلالة على القصص العربي القديم ،وحسبما ما يرى - ضياء الكعبي - بأنه يعد هذا المصطلح مفهوماً جامعاً يتخذ بعد الجنس، وتندرج في إطاره التحليلات السردية مثل: الأخبار والأسمار والحكايات والقصص . ويتحدد مفهوم مصطلح "السرد العربي القديم" للدلالة على مختلف الأشكال السردية ،التي ظهرت في تراثنا العربي من فنون قصصية وأخبار و نوادر ... الخ.

ومنه إذن فالتعريف المقدمة للسرد ركزت على طريقة عرض الكلام، والمحافظة على مبدأ التقنية المرتبطة بالجودة الفنية في تأليف الكلام وصوغه، ولاحظنا وجود توافق بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي في السرد في مفهوم صوغ الكلام في طريقة متتالية ومنظمة ومتسقة، وحصل تقارب كبير بين المفاهيم الغربية والعربية لمفهوم السرد؛ لأن دلالة المصطلح في الأصل هي غربية ،وأما دلالاته العربية فمصطلح السرد القصد منه الإشارة إلى المرويات والحكايات العربية القديمة ذات الطابع السردية .

إنَّ الجمالية هي مصطلح نقدي حديث ، ونقصد بالجمالية تلك « النزعة المثالية التي تبحث في الخلفيات التشكيلية للإنتاج الأدبي والفني ، وترمي إلى الاهتمام بالمقاييس الجمالية بغض النظر عن الجوانب الأخلاقية». مما هو معلوم أنَّ مصطلح الجمالية ارتبط بالجوانب الفنية المتصلة بالشكل الفني للنصوص السردية، ويتجاهل المضامين الأخلاقية والدينية، والجمالية هي بحث في طرق تصوير الجمال الفني في النصوص السردية وأثرها في المتلقين رصد النقاد العرب في التراث الأدبي العربي شيوع مصطلحات من قبيل: الحكاية والقصة بعد أن زحزح مصطلح الخبر الحديث، وكذلك النادرة والمثل... الخ، وهذه المصطلحات متحركة ومتغيرة المفهوم بحسب الشروط التاريخية والاجتماعية، التي أحاطت بالسرد العربي القديم».

ومنه إذن فقد تعرضنا لمفهوم المصطلحات "السرد"، الجمالية "لما لها صلة مباشرة بمجال جماليات السرد العربي القديم، ولكونها مصطلحات مفاتيح لهذا المجال ، ولاحظنا أن مصطلح السرد اكتسب خصوصية عربية إسلامية في تراثنا الأدبي العربي .

ثانياً - نشأة السرد العربي وتطوره :

مرَّ السرد العربي بمراحل تطوّر هامة تغيّر فيها من حيث مفهومه وأشكاله ، وسنأتي على ذكرها :

1- السرد العربي في العصر الجاهلي:

في البداية نشير إلى أنَّ السرد العربي في العصر الجاهلي كان « شفويًا على ألسنة الرواة ، ولقد تعرض إلى تحريف وتغيير في معظم المرويات السردية، وإذا كانت القصة الجاهلية فكرة وأحداث وشخصيات؛ فإن السرد فيها كان كتابيًا متأخرًا حاول المحافظة على الروح الجاهلية، وكان للاحتكاك العرب بالقبائل المجاورة (الفرس، الروم) تأثير في أساطيرهم وحكايتهم، التي شغلت مساحات واسعة من عالم السردية العربية ، وكانت ملتقى لثقافات متعددة (كالوثنية والمجوسية والمسيحية) » .

ساد الطابع الشفوي للمرويات الحكائي في السرد الجاهلي، فكانت كل قصص العرب وحكايتهم تتداول مشافهة، وبفعل التفاعل بين العرب والقبائل المجاورة ، وكان له أثرٌ في صياغة قصصهم ، وكذلك في العصر الجاهلي « وكثيرًا ما كان يلجأ الشاعر إلى السرد عندما يتذكر أحبته كما فعل امرئ القيس حينما يتذكر».

برزت قصائد شعرية لشعراء العرب (الشعراء الصعاليك) سردت الحكايات العاطفية أو قصص البطولية لشعرائها، وسجلت الأحداث التاريخية أو الاجتماعية بأسلوب سردي ممتع وشيق ، وظهرت العديد من القصائد العربية في طابع قصصي ، متأثرة بالحياة الجاهلية الوثنية.

2- السرد العربي في العصر الإسلامي:

في البداية نشير إلى أنه في العهد الراشدي حصلت نقلة نوعية في أسلوب السرد العربي، فتأثر القاص العربي بتعاليم الإسلام ، فظهر لون خاص عُرف بالقصص المسجدي «فشكل فضاء المسجد وفضاء المنبر منظورًا عقائديًا يتحكم في تشكيل المرويات السردية وفقًا لأوامر السلطة الدينية ونواهيها» .

ومنه فقد ظهر لون جديد في السرد العربي القديم، وترسخ في تراثنا العربي عُرف بالقصص الإسلامي المسجدي ، وتأثر القاص العربي بمنهج الدعوة الإسلامية ، فظهرت فئة من القصاصين الملتزمين ، وتركوا المرويات الوثنية والأسطورية، التي ظهرت في العصر الجاهلي ، وارتبط السرد بجهود الرواة، وانتقل فن الرواية نقلة نوعية في العصر الإسلامي «وتتقطع سلسلة

الرواة عند القرن الأول للهجرة، وقد تصل إلى زمن الدعوة الإسلامية ليس أكثر ، ففن الرواية فن إسلامي بدأ بعلم الحديث النبوي الشريف، وبدأ القصص الإسلامي في الزمن النبوة، وكان القصص يثيرون فيهم الحماسة الدينية». أثارت القصص الإسلامية الحماسة الدينية في نفوس الناس، وظهر لون جديد من السرد متأثر بفن الرواية الإسلامي، وإن رواية الحديث النبوي وأخبار الرسول (ﷺ) شكلت البداية الفعلية لما يعرف بالقصص الإسلامي، الذي هو مختلف في توجهاته وغاياته عن القصص الجاهلي.

3- السرد العربي في العصر الأموي :

مما هو معلوم أن القصص العربي القديم بدأ وثنيًا متأثرًا بأساطير وخرافات الشعوب الأولى في العصر الجاهلي «ثم تطور دينيًا مستمدًا من القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ﷺ) وسيرته، لأهداف دينية دعوية خالصة، ثم خرج إلى أغراض سياسية أيام الفتنة بين معاوية وعلي ، وثم تطوّر في زمن معاوية إلى قصص تاريخي وأسطوري يتناول أخبار الأمم السالفة...إضافة إلى ما استمر من أشكال قصصية قديمة».

إن السرد في العصرين الإسلامي والأموي ليس على شاكلة واحدة، فهو متنوع إلى سرد ديني أو تاريخي أو أسطوري ونجد أن القصص العربي «في زمن معاوية أصبح له شأن كبير ، واقتتران القصص بالشعر ، وهو الشكل الذي ظل سائدًا في القصص العربي طوال قرون من الزمن».

حصل تداخل بين الشعر والنثر في مجال القصص العربي ، وهو سمة ميزت بعض النصوص السردية القديمة ، وظهر في العصر الأموي لون جديد من القصص ذا طبيعة تاريخية تماشيًا مع غاية السارد العربي في تدوين الأخبار .

4- السرد العربي في العصر العباسي :

شهد السرد العربي في العصر العباسي تطورًا ملحوظًا « فإذا كان العلماء قد صاغوا المواد القصصية بأسلوبهم محافظين -بعض الشيء- على نكهتها الشفوية ؛ فإن هناك قصصًا شفويًا خالصًا ظل يُتداول في كل مكان على أفواه القصاص ،الذين علا شأنهم في العصر العباسي الأول ، وقد لمع عدد من القصاص المشهورين في هذا العصر منهم : عبد الله بن عرادة وموسى الأسواري والقاسم بن يحيى الضرير».

حصل تدوين القصص العربية في العصر العباسي مع بقاء الطابع الشفاهي لتلك القصص، وتحدث الجاحظ عن القصاصين في كتابه البيان والتبيين، وقد أفرد لهم بابًا ترجم لهم فيه، ومما أورده الجاحظ في ذكر القصاص في قوله: «ومن كبار القصاصين ثم من هذيل :مُسلم بن جندب ،وكان قاصّ مسجد النبي ﷺ بالمدينة ،وكان إمامهم وقارئهم »
انتشر القصص في شبه الجزيرة العربية ،وخصوصًا أن البيئة البدوية العربية ساعدت على ذلك .

وفي العصر العباسي حدث تدوين السيرة النبوية على نطاق واسع « وتعد السيرة النبوية أول عمل تأسيسي لفن السير، وقد قام أبو هشام بن هذيل بتهديب السيرة النبوية؛ لأن السيرة النبوية،التي أخذها عن ابن إسحاق، وبغض النظر عن صحة مرواياتها فيها وتعد السيرة النبوية أهم نص سردي أرخ لحياة الرسول محمد (ﷺ) وأثر في مسار تطور فن السير العربية» .

وكما بدأ تدوين المغازي والأخبار وسير التاريخ..الخ ،ومن المؤلفات السردية الهامة فيه نذكر:الفهرست لابن النديم، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني، والبيان والتبيين للجاحظ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيد، وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، وهنا لا يمكن إغفال جهود المترجمين، ويأتي على رأسهم ابن المقفع في ترجمته لكتاب كليلة ودمنة،وهي قصص على لسان الحيوان،وهو ما يُعد من أجل أعماله» .

تجدر الإشارة إلى أن السرد العربي في العصر العباسي تأثر بالأحداث السياسية والفكرية والاجتماعية في المجتمع العباسي، واستمد الفن القصصي العربي الكثير من الألوان السردية والسمات الفنية نتيجة للعوامل الثقافية والدينية والتاريخية التي أثرت في السارد العربي بشكل مباشر «ويتيح تنوع نصوص تراث السرد العربي وتعدد إمكانات شتى لمساءلة هذا التراث واستكناه ملامحه وقوانينه انطلاقاً من الأنواع السردية التي برزت في إطار التفاعل السائد بين كل مكونات الثقافة العربية الإسلامية، وتمثل هذه الأنواع السردية نصاً منفتحاً على حقول معرفية عديدة إذ تشمل قصص الحيوان والقصة العجائبية والمقامات، والسير الشعبية، وأيام العرب، والقصص الإسلامي القرآني المسجدي، وقصص الأنبياء... الخ».

حصل نضج في مسار السرد العربي القديم، فظهرت فيه فنون وأشكال سردية عديدة: كالقصص بمختلف أنواعه والمقامات، والسير والملاحم.. الخ اصطبغت بسمات البيئة العربية الإسلامية.

5- السرد العربي في عصور الجمود :

تراجع تطور السرد العربي في عصر الانحطاط، فظهر الضعف في نصوص سردية، ومع أن عصر الدول المتتابعة حفل بمجموعة من «السير الشعبية مثل الظاهر بيبيرس وسيف بن ذي يزن، وظهرت قصص أخرى، وكانت المقامة العامة، التي تقلد المقامة الفصحى من فنون النثر الشعبي الشائعة، واتخذت وسيلة للتعبير عن الموضوعات الخفيفة الفكاهية والساخرة، واتخذت وسيلة للهزل والاضحاك».

اتجه الأدباء في هذا العصر نحو المواضيع السطحية، وكانت غاياتهم هي الإمتاع، ومع ظهور سمة التقليد والمحاكاة في سردهم، وعلى سبيل الذكر «وُضعت المقامة أصلاً في العصر العباسي لأغراض دينية، فارتقت وتتنوعت في عصرها، ولكنها تراجعت في عصر الانحدار والعصر العثماني عما كانت عليه من مكانة عالية، وإن كان أدباء العصر العثماني قد كتبوا مقامات كثيرة ومتنوعة حافظ بعضها على الشكل القيم للمقامة أسلوباً وهدفاً».

ومنه فالمقامات في العصر العثماني هي تقليد عام للمقامات، التي ظهرت في العصر العباسي، ولا تعبر عن إبداع مؤلفيها. تجدر الإشارة إلى أن عصر الجمود لا يعني ضعف الكتابة في كل فنون السرد العربي القديم، فهناك استثناء، ففي هذا العصر انتشر تدوين الرحلات، وظهرت كتب الرحلات على نطاق واسع، ومن أبرزها: «مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي.. ورحلة ابن بطوطة المسماة بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

ومنه نقول بأنه إذا كان العصر العباسي هو عصر تطور وازدهار للسرد العربي القديم؛ فإن عصر الجمود على خلاف ذلك؛ إذ شهد تراجعاً في بعض الفنون السردية كالمقامة والقصة والحكاية.

وفي الأخير نرى بأن السرد العربي القديم أصيل وعريق نشأ وتطور في إطار عوامل ثقافية واجتماعية ودينية خاصة صبغته بطابع عربي إسلامي، ومكنته من التربع على عرش الآداب العالمية.

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً - قائمة المصادر الأدبية واللغوية العربية :

1- المعاجم اللغوية:

1- ابن منظور: لسان العرب، مادة (سرد)

2 المصنفات الأدبية التراثية:

1- الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون

ثانياً- قائمة الكتب العربية الحديثة:

1-قائمة المعاجم والقواميس العربية الحديثة:

1. فؤاد أفرام البستاني: منجد الطلاب

2. لطيفة زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية

3. سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية

2-قائمة المراجع العربية الحديثة :

1. ضياء الكعبي: السرد العربي القديم "الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل "

2. ركان الصفدي: الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري

3. محمد صادق الرفاعي: تاريخ الأدب العربي

4. حسين علي الهنداوي: كتاب أشكال الخطاب النثري الفني في عصر الانحدار "عصر الدول المتتابعة

5. حسين علي الهنداوي: كتاب أشكال الخطاب النثري الفني العثماني

6. عبد المالك مرتاض: ألف ليلة وليلة "دراسة سيميائية لحكاية جمال بغداد

7. سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات

8. سعيد يقطين: الكلام والخبر مقدمة السرد العربي القديم

9. يوسف الشاروني: القصة تطوراً وتمرداً

10. فؤاد قنديل: أدب الرحلة، في التراث العربي

ثالثاً- قائمة المصادر والمراجع الغربية :

1- المعاجم والقواميس الغربية الحديثة :

1. بول آرون وآخرون: معجم المصطلحات الأدبية، تر: محمد حمود

2. جورج مونان: معجم اللسانيات، تر: جمال حضري

3. جيرالد برنس: قاموس السرديات، تر: السيد إمام

4. جيرالد برنس: المصطلح السردية، تر: عابد خزندار

2-المراجع الغربية الحديثة:

1. جيرار جينيت: خطاب الحكاية، تر: محمد معتصم وآخرون .